العدد الرابع
نيسان (ابريل)
السنة الثامنة

8ème ANNEE
No. 4 Apr. 1960

الآداب
مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
بيروت
ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

[Rédacteur en chef et
directeur
SOUHEIL IDRISS

التاريخ بين القومية والانسانية

بقلم الدكتور عزت قرني

ما أكثر ما ينهمر الحديث في دنيا العرب اليوم عن القوم والقومية والعرب والعروبة والانسان والانسانية ، سواء في المعترك السياسي ام على المستويات الادبية والفلسفية .

ولا نكران ان هذه القضايا من التشعب والتشابك بحيث تبرر خصب البحث وتنوع القول . على ان وضوح المفاهيم لا يتناسب في الغالب مع وفرة الشروح . . وقد توغل الفكرة في الغموض بقدر ما يطرح عليها من الحواشي والتفاسير ولست اطمح ان اخرج عن هذه السنة . .

والموضوع ، ليس جديدا ، ولعلي لن آتي فيه بشيء جديد ، فيما خلا اثارة المزيد من التساؤلات . واذا كان لا مفر من البدء بالبداية ، اي بالتعاريف . فلنقدم المثال قبل الاحكام :

في وطننا الكبير شعوب تناثرت اوصالها ، وتحكم فيها الاعاجم والاتراك والافرنج مئات السنين ، وبقيت رغم ذلك وفية للغتها او مثلها وتراثها . في كل بلد للعروبة ظلت قلوب تهفو الى معانقة قلوب ، ووجوه ترنو الى لثم وجوه وايد تسعى الى مصافحة ايد شقيقة حانية . .

القومية ليست الا هذا ... مهما عمقت الفلسفة جوانبها ، وضخم المجهر عناصرها . والانسانية في داخل القومية تعني بكل بساطة ان نعامل ابناء قومنا بما نحب ان يعاملونا به ، وفي الاطار الخارجي ان يتعامل قوم مع الاقوام الاخرين بمثل ما يودون ان يكون التعامل معهم .

يجهد الفلاسفة ان يثبتوا نزعة الانسان الطبيعية الى الوحدة والشمول ، فهو يسعى عن شعور او غير شعور الى الخروج من المغلق الى المفتوح ومن الخاص المحدود الى العام المطلق . بذلك انتقل من عصبية الاسرة والقبيلة الى قومية الامة وهو مسير في الطريق نحو عالمية الامم او اممية العالم .

فما هو موقف التاريخ كعلم من هذه المسبقات ؟ الا يمكن ان يكون طور الامة هو طور الاكتمال ، والبلوغ اليه اشبه بالتطور من الطفولة نحو سن الرشد ؟

الفلسفة تقول عن تصور والتاريخ يقول عن تثبت .

ماذا يروى التاريخ عن محاولة سحق القوميات في ظل الامبراطوريات ؟ هل كان ذلك طبيعيا ومطابقا لسنن الكون ؟ واذا كان طبيعيا فلم لم يستمر في الوجود ؟ بينما خرجت القومية دوما ظافرة مكينة البقاء .

والمحاولات الروحية للمؤاخاة بين البشر والوصول بهم الى المدينة الفاضلة التي حلم بها الطوباويون . هل نجحت في محو القوميات ؟ ام على العكس كان الدافع اليها تثبيت القوميات وتعزيزها عن طريق القضاء على مهدداتها ؟

تجربة الاجابة عن بعض هذه التساؤلات هو موضوعنا .

وشاهدنا هو علم التاريخ .

سنحاول اولا التدليل على أهلية هذا العلم للشهادة وتبرير وجوده وتأكيد ضرورته للقومية والانسانية بالذات . وسنعمد ثانيا الى عرض فيلم كلامي عن تاريخ تلك القومية والانسانية .

التاريخ ضرر ام ضرورة

ولعلي استبقت الامور ووضعت المحراث امام الثور كما

يقول المثل الفرنسي فجزمت بوجود شيء اسمه علم التاريخ قد لا يكون له في نظر العارفين اي كيان حقيقي ، والواقع ان التاريخ مدون عند جميع الشعوب ان لم يكن في الاسفار ففي الصدور على أضعف احتمال. ولكن تدوين الحوادث شيء وتدوينها على حقيقتها شيء اخر . والشك يطرأ على التاريخ من هذه الجهة .

ويطرأ عليه ايضا من جهات اخرى ، وهي بالذات الجهات المتصلة بالقومية والانسانية .

يقول المرتابون : ما جدوى معرفة الماضي ؟

ويخلص بعضهم من الشك الى اليقين فيقرر بان التاريخ يديم الاحقاد ويحفظ حرارة البغضاء بين طوائف الامة الواحدة وبين الامة وغيرها . وبذلك يمنع السلام من ان يستوي على الارض .

واقل المنددين ضراوة ياخذون على التاريخ تجميد الامم على مواريثها العتيقة ، وخنق الاحياء تحت كابوس الملايين من الاموات، وتعطيل قوى التقدم والابداع، وبالتالي تعريض المجتمعات الى التخلف ثم التهافت ..

واخيرا هنالك الذين يتساءلون : هل يمكن الحياد في التاريخ ؟ وهل يستطيع المؤرخ ان يتحرر من عاطفته الوطنية والقومية بل والشخصيه ؟ واذا أمكن كل ذلك فهل هذا التحرر شيء مرغوب فيه ، ولاسيما في التربية والتعليم ؟ ولقد تصدى للدفاع عن التاريخ علماء في كل امة من الامم . وكتب بلسانهم الاستاذ (لويس هالفن) في مؤلفه (المدخل الى التاريخ) المنشور عام ١٩٤٦ فقال :

« لم تؤلف كتب في التاريخ بعدد مايؤلف في ايامنا ،ومع ذلك لم يجحد نفع الدراسات التاريخية بقدر مايجحد في زماننا . لقد اصبح رائجا ان يهزأ من المؤرخين في عبث الجهود التي يبذلونها ، وان تنكر كل قيمة علمية لاعمالهم . »

ورد الاستاذ هالفن على ذلك يتكشف في هذه الجملة المعبرة :

« انه لمن الاسهل ان يشتم التاريخ من ان يستغنى عنه » .

وقد يتخذ الطعن في التاريخ شكل العبث الهازل ، وهو يخفي وراء الابتسامة العريضة اقتم الوان النقد والتجريح . من ذلك ماكتبه عن المؤرخين الاديب الاميركي الساخر (مارك تـوين) .

زعم ذلك الاديب انه دعي الى القاء محاضرة على جمع مهيب من شيوخ المؤرخين ، فاختار عنوانا لمحاضرته « فن الكذب في انحطاط » وقال فيها :

« لست ازعم ان عادة الكذب تعاني ضعفا او تشكو انحطاطا ، فالكذب هو مبدأ خالد وفضيلة ازلية . وفي الكذب تسلية للمكروب وعزاء للعاني وملجأ امين للبائس . ان الكذب صديق الانسان الاول ورفيقه الامثل ..

ولا خوف على الكذب من الزوال وانتم في الوجود ،معشر المؤرخين ، وان كنت اشكو فما اشكو سوى انحطاط فن الكذب ... واذا عالجت هذا الموضوع امامكم فانما اعالجه على تهيب واستحياء ، فانتم معشر المؤرخين سادة هذا الفن واشياخه .. ومثلي معكم كمثل العانس لم تلابس الحياة تتصدى لتدريب قهرمانة عركها الدهر من بنات اسرائيل ... وفي الحق لو كان لفن الكذب ــ اجمل الفنون الجميلة ــ انصار مخلصون مثلكم كثيرون يشجعونه ويرعونه ويغذونه ويمارسونه ممارسة دائبة صادقة ... لو أتيح له اندية كثيرة كناديكم هذا لما اعتراني الجزع وغلبني الدمع .. ولا اقول ذلك ممالأة ونفاقا ، وانما هو الحرص على تقدير الناس حق قدرهم ... »

الانسان حيوان مؤرخ

وبعد لا يعنيني هنا الدفاع عن التاريخ كعلم ، فالحقيقة في التاريخ يجب ادراكها . ومن الممكن ادراكها ، عن طريق جمع الوثائق ومقابلتها وعرضها على ميزان الفكر ، وتعريضها للجرح والتعديل .

والذي يعنيني تاكيده الان هو ان التجني على التاريخ لايريحنا منه ، لانه في نفوسنا قبل ان يكون في الكتب التي نقرؤها طوعا ، او تفرض علينا بطريق التعليم المدرسي.

اللغة التي ننطق بها والنغم الذي نهتز لسماعه ، والمنظر الذي يعجبنا ، والعادات التي تتحكم فينا ، وشكل الحكم الذي يسيرنا ، والثوب الذي نرتديه والغذاء الذي نقتات به .. كل ذلك تاريخ لانه نتاج تفاعل الحاضر مع ارث الماضي . وما دام للمرء ذاكرة يستند اليها في سلوكه ، فهو مؤرخ شاء ام ابى ، والتاريخ هو عنصر التوازن في شخصيته ولعل من ابرز صفات الانسان انه حيوان مؤرخ .... وموضع الفرد من اسرته ورهطه ودولته وامته ، وموضعه في العالم انما تحدده ظروف البيئة الزمنية التي وجد فيها . ولذا فان القومية هي ذاكرة قبل كل شيء ، وبتعبير اخر ان التاريخ هو ذاكرة المجتمع .

حياتنا صيرورة مستمرة ، هي نهر له نبع ومصب ، ولا يمكن ان يستغني المصب عن المنبع . كل شيء في هذه الحياة هو تسلسل ، ونحن مدفوعون بغرائزنا الى تعليل الحوادث التي نشهدها او تقع لنا بهذا التسلسل .

ان تعليل الحاضر ، بل ان فهم مشاكل الحاضر منوط بملابسات ما قبل الحاضر مباشرة ، وما قبل الحاضر مباشرة هو التاريخ .

التاريخ والقومية العربية .

بعض المجددين منا يدعون الى الثورة على التاريخ وقطع جذور الماضي وبناء مستقبلنا الجديد على ركائز جديدة .

واني لاتساءل كيف يمكن ذلك ؟ هل نثور على ما نجهل ؟ ولقد رد على هؤلاء صديقنا الدكتور قسطنطين زريق في كتابه الرصين « نحن والتاريخ » .

حتى الثورة على التاريخ ــ اذا كان فيه مايثار عليه ــ تقتضي اولا معرفة ذلك التاريخ . ان اكثر المجددين تجددا واشد الثائرين ثورة ، لا قبل لهم بمحو الماضي ، كل الماضي . بل لا مفر لهم من الاستناد اليه .

قد يظن ان الثورات هي فصل ما نحن فيه عما كنا عليه

والواقع هو العكس . ليست الثورة سوى نتيجة لتخمر طويل . فهي حلقة وصل لانها في وقت واحد بداية ونهاية : نهاية عهد مذموم وبداية عهد مرجو فيه . ولولا العهد الماضي لما كانت الثورة ولما بدا العهد الجديد .

لولا القيصرية الروسية لما كانت البلشفية . واذا محي تاريخ القيصرية ، كانت جمهوريات الاتحاد السوفياتي لغزا من الالغاز .

وفي تاريخ امتنا . وفي تاريخ كل امة ، محامد ومثالب وليس دور المثالب باقل شانا في عبرة التاريخ من الامجاد والمآثر .

تذكر الخصومات والمنازعات الحربيه والطائفيه ضروره . لبيان اثرها في تفكيك القوام العربي ، وبالتالي دعوة الى التنكب عنها في الحاضر والاتي .

معرفة التفرقة الغابرة بدء المسير على درب الوحده العتيدة .

ادراك عوامل التخلف التاريخيه نقطة الانطلاق في التجديد .

وليس من دروس التاريخ الجهر في كل مناسبة بان الاستعمار الاجنبي سبب تجزئتنا السياسية . لقد كان التفتت ثم كان الاستعمار . او بالاحرى كان الاستعمار بسبب التجزئة ، فادامها وثبتها وعمق جذورها .

ونحن نغالط في التاريخ حين ننسب ضعفنا وتخلفنا الى المستعمرين الغاصبين . الحقيقة ، اننا ضعفنا وتخلفنا فاستعمرونا ، ثم امعنوا في اضعافنا وصدونا عن التقدم .

تاريخ العرب سجل لانتصاراتهم ولتراخي عزائمهم . والقومية العربية ، المنطلقة اليوم على درب القمم ، تعرف طريق النصر لانها ذاقت قبل ذلك مرارة الهزيمة .

قصدت الى القول بان التاريخ القومي كل متكامل . فيجب ان لاتبتر منه صحائفه السود . وان لاتصطنع فيه الامجاد وتضخم البطولات ..

التاريخ هو قبل كل شيء مدرسة للصدق . وليس من القومية في قليل او كثير بناء تلك القومية على اسس موهومة او مفتعلة . والحقيقة هي دوما انفع للعبرة الوطنية من اختلاق الحقيقة .

والتاريخ العربي مزدحم بالمآثر . وليس من ضروره المنه بالاساطير . ومن الخطر على القومية العربية بالبدات التعويض عن نقص الحاضر باوهام الماضي .

تقديس ام تجديد ؟

واذا قلنا ان التاريخ القومي موضع عبرة واداة حفز وموئل اطمئنان ، فاننا نقول في الوقت ذاته : قد يكون ذلك التاريخ خميرة تجميد وعامل وقوف ووسيلة حجر على القوى المتفتحة للخلق والابتكار ..

عبادة الاجداد وتقديس كل قديم والحفاظ على معالم القرون الاولى في ظهيرة العصور الحديثة .. كل ذلك قاد امة الصين الى الانهيار .

والواقع ، ان في كل حضارة اسسا خالدة واخرى زائلة كما اثبت العالم برديف . والمهم في بناء القومية تمييز العمد الثابتة عن المظاهر المتغيرة .

وما يصح في النظم واساليب الحياة يصح في الاشخاص. ذلك ان التاريخ القومي كان ، ويجب ان يكون على الدوام . كنزا من التجارب المتجددة . كل كائن يتمثل اولا ماصنع اسلافه . وهذا هو معنى التأهيل الاجتماعي بالتاريخ . ثم يبدأ هو رسالته كانسان ، فيضيف شيئا جديدا الى التراث القديم .

ولعل خير مانستوحي من الماضي تلك الطاقة المعنوية التي دفعت المصلحين الى الاصلاح والمجددين الى التجديد. من ابطالنا الشجعان نستلهم شجاعتهم لا أساليبهم في الطعان .

ومن علمائنا الافذاذ نستمد قدرتهم على البحث والغوص لا ماوصلوا اليه بالفعل .

من الماضين تبقى لنا حماسة نبيلة وهيجان خلاق ..

ولا يعني الاديب الفرنسي « موريس باره س » سوى ذلك حين يقول :

« ان من واجبنا بل من ضروريات حياتنا ان نحب اموانا . فأية قوة تنبعث عنهم . ايها الاموات كم انتم أحياء !... »

ان الفرد اذن هو امتداد لامته لا تكرار لها وهو متضامن مع الاجداد على اتمام مهمتهم لا على اعادة سيرتهم .

من الافتئات على التاريخ الزعم بانه يتكرر بينما هو يتطور .

ومن الجهل بالحضارة الوهم بانها اعادة مستمرة . بينما هي خلق دائب لايفتر . التاريخ ، على راي المؤرخ « توينبي » هو حضارة لا اقل ولا اكثر . حضارة تنشأ عن تحدي البيئة الطبيعية المستمرة للبشر ، واضطلاع الاقلية المبدعة في الامة برد الفعل على ذلك التحدي .

الاساس ان تكون لدى طائفة من القوم عقدة نفسية تراكم التصميم وتحفز دوما على التجديد . وتتفكك الحضارة حتما حين تفتقد الاقلية المبدعة وتبقى تحديات الطبيعة دون ردود فعل .

وبالاستناد الى هذه الحقائق الواضحة يستنتج توينبي دستور ضعف الامم . فيقرر ان الغزو من الخارج لاينال من الامة اذا كانت حضارتها مستمرة في النمو ، والحضارة تزول بالانتحار ولا تزول بالقتل .

قومية ام امية

والحضارة اوسع نطاقا من القومية ، كما ان اشعاع الشمس ابعد مدى من الشمس . واذا كانت القومية لاتتعارض مع تبادل الحضارات او تلاقيها ، فانها تابى ان تحل الامية السياسية محل الحضارة الانسانية .

ان من هبات التاريخ لنا اقامته البراهين تلو البراهين على ان الصلة القومية كانت ولا تزال اثبت ظاهرة اجتماعية .

منذ القديم ظهر عند الانسان النزوع الى العالمية سواء كان ذلك في المجال الحضاري والديني ام في الميدان السياسي . قامت الامبراطوريات في كل مكان على الارض، تسلطت دول على دول وشعوب على شعوب ، فماذا كانت النهاية ؟

في كل مرة كانت الغلبة للقومية لا للعالمية السياسية .

زالت من الوجود امبراطوريات الحث والفراعنة والفرس والمكدونيين والرومان والبيزنطيين والترك . ودالت امبراطوريات شارلمان وشارلكان ونابليون وهتلر وموسوليني. وستنقرض امبراطوريات مكملان ودغول دون ظل من الشك .

ماذا بقي من جميع اشكال الحكم الامية ؟ لا شيء .

لانها ارتباط صنعي موقوت يفرض من الخارج بينما القومية ارتباط طبيعي دائم ينبع من الداخل .

الانسانية العالمية لن تكون شيئا الا اذا كانت على اساس التوازن القومي والتعاون الحضاري اي التعايش الايجابي. ذلك ان القومية محبة والانسانية صداقة والامية فرض مشيئة .

والذين يتوهمون ان اذكاء القوميات يزحزح اركان السلم العالمي هم مغالطون ، لانهم يعرفون أكيد المعرفة، ان السلم العالمي مزحزح الاركان بسبب اذلال القوميات . والمشفقون على الانسانية الذين يتمنون نسيان التاريخ ، لينسوا البشرية احقادها ويمهدوا للصلح بين شعوبها ، واهمون ايضا ، لان الذي يزيل الاحقاد هو التعرف على اسبابها ، والتاريخ هو سبيل ذلك . التاريخ وحده يكشف السوابق المرضية للانسانية المريضة ، وبذلك يعد التشخيص ويوجه الى الدواء .

انني مع القائلين بان التاريخ القومي المدون لدى جميع امم الارض لايساعد على ارساء الاخوة الدولية ، لانه مدون على شكل وحيد الطرف،يكال فيه المجد كيلا للاصحاب، وتجمع الذنوب والسيئات في كفة الخصوم والاغيار . هذا صحيح . ولكن ذلك تسميم تاريخي وليس بتاريخ . والسبيل الى ترسيخ المناعة ضد هذا النوع من التضاليل هو ان يقوى الوجدان التاريخي عند المؤرخين .

ثالوث التاريخ .

وفي الحق ان التاريخ ثلاثي المعنى :

هو اولا مجرى الاحداث بالذات

وهو ثانيا تدوين تلك الاحداث .

وهو اخيرا اجتلاء معناها وكشف اثارها في مصير الناس .

ونحن ، بالبداهة ، لانستطيع تبديل مسير التاريخ في الماضي ، ولا نملك ان نفرض سلوكا معينا على من فات من الغابرين . وحين ندون هذا السلوك وذلك المسير تقتضينا رجولة الامانة ان نتقيد بالحقيقة . ولا بد في التدوين من اصطفاء . وقاعدة الاصطفاء اختيار الاحداث ذات الاثر في حياة القوم والبشرية .

وقد درجت في ايامنا هذه تعابير جاهزة تدعو الى الالتزام في الادب والفن وفي العلم والتاريخ وجميع صنوف المعرفة والابداع .

والداعون الى الالتزام يعنون به استجابة المفكر والعالم لضرورات مجتمعه ، والمشاركة في تسديده وتجديده والنهوض به . ولا اعتراض لي على الالتزام من حيث المبدأ ، بل قد اكون من اوفى مؤيديه ، ولكنني في تدوين التاريخ على وجه التخصيص لارى في الالتزام شيئا اخر غير التزام الحياد والنزاهة .

اما الانتفاع بالتاريخ في اغراض التوجيه القومي والاجتماعي ، وفي تمريس النفوس بالحرية ودفعها الى التمرد على الظلم والاستعباد ، وفي غير ذلك من صور النبل والفضيلة ، فهذا هو الوجه الثالث من التاريخ ، اعني بذلك تفسيره وتخطيط محصلته وتكثيف عبره والسمو من جزئياته الى مغزاه الكلي الشامل ، على نحو ماصنعه ابن خلدون في مقدمة تاريخه ، وعلى نهج من تبعه في ذلك من الغربيين كشبنجلر وبردييف وتوينبي وكارل ياسبرز وغيرهم .

هذه مرحلة مغايرة لمرحلة التدوين . في التدوين التقاط امين لمحصول الزمان بمثالبه ومحامده . اما المرحلة اللاحقة ففيها حكم على هذا المحصول وتقويم له وتفريق بين ثمراته الناضجة والفجة . ومآل هذا كله انتقاء بذور جيدة لمحصول جديد معجب .

فاذا كنا لانستطيع تبديل التاريخ في ماضيه فنحن بكل تأكيد نستطيع التحكم في آتيه ، مستخدمين ذلك الماضي بالذات .

ان هذا الوجه الاخير من ثالوث التاريخ هو أجدرها بالاهتمام والصقها بمفهومه الاصيل . فلا جدال ان القيم في التاريخ هو عصارته لا عصوره ، وحديثه لا حوادثه ، وعواقبه لا تعاقبه . والتاريخ في اتجاهه التركيبي هذا ، المتجرد عن الزمان والمكان ، يلتقي بعض الطريق مع علم الاجتماع .

هذا المنهج الاستقرائي يرسم سبيلي في الشطر الثاني من هذا البحث .

التجربة اللاتاريخية قبل الانسان :

استميح المؤرخين العفو اذا بدأت التاريخ قبل التاريخ ، وجمعت الاضواء على البشر الاوائل ، بل والعضويات القديمة ، لان عناصر القومية والانسانية تكاد تكون ازلية الميلاد .

ان مانسميه عرفا التاريخ لايتجاوز في المدى خمسة الاف سنة ، ثلاثة الاف منها سابقة للميلاد ، وما قبل ذلك ضباب كثيف ، من وجهة نظر المؤرخين الوثائقيين على الاقل ..

وتحدد التوارة عمر الارض من لدن خلق ادم الى اخر الدهر بستة الاف سنة ، وانتقل ذلك الى تراثنا العربي ، فافاض الطبري مثلا في روايته والتدليل عليه . واذا تحققت تلك النبوءة تكون الحقبة التاريخية كلها متناهية القصر بالنسبة الى مئات الالوف من السنين التي استغرقتها ازمان ماقبل التاريخ .

وحياة البشر قبل بدء التاريخ تعتبر وجيزة ايضا اذا قيست بعمر الحياة العضوية ـ حياة النبات والحيوان ـ التي دامت نصف مليار سنة قبل خلق الانسان .

نصف مليار سنة ، هل لها محصول بالنسبة الينا ؟

لا شك .

هذه القواقع المتحجرة والهياكل المنظمرة ، والنباتات المتفحمة ، الراقدة اليوم في الاعماق تحت اقدامنا على شكل جماعات متميزة كانت تنبض بالحياة في يوم ما .

وكان بين القوقعة ومثيلاتها ، والسمكة واضرابها ، والفصن واشباهه، كان هنالك مايصح ان نسميه بالتجاذب الاجتماعي ...

كل بيئة لها مجموعة تتبعها ، فلا وجود للكائن المنعزل ، ولا بقاء لمن يخرج عن المجموع . بيئة ، تماثل النوع ، حياة مشتركة .. الا يكفي كل هذا لان نتكلم عن وجود قومية متميزة لكل طائفة من جماعة النبات والحيوان ؟!.

علماء الاجتماع الحيواني والنباتي يؤكدون ذلك . ومن المشاهد ان الامر باق الى اليوم . الى اليوم للنحل قومية ، كما للنمل والفيلة ، وللاشجار لنخيل قومية ، كما للورود والرياحين .

الفيل الاسير في حديقة الحيوان يرمضه الحنين الى اهله ، والسنبلة الشاردة تنوي في حقول البقول والخضروات ..

قد يقال : ليس في الامر اكثر من ارتباط باجواء مادية .

ليكـــن .

أليس حب الوطن في الاصل ارتباطا بجو وارض ؟

ذلكم درس عظيم من دروس التجربة اللاتاريخية السابقة للانسان .

التجربة اللاتاريخية للانسان

ثم كـان البشر علـى الارض .

ولسنا نعرف شيئا محققا عن طفولة الانسان الاولى . هل درج فـي عش واحد ثم انساح أنساله في طول الدنيا وعرضها ، ام كان لكل بقعة من الارض آدمهـا الخاص بهـــا ؟

العلمـــاء يميلون مع ابي العلاء حين يقـــول :

جائز ان يكون ادم هذا قبله ادم على اثر ادم ...

والعلماء يميلون ايضا الى الظن بان نشأة البشر متعددة لا متوحدة .

ولا يعنينا الخوض في صحة هذه المزاعم او بطلانها ، وانما يعنينـا الوقوف على احوال الاجداد لنزن ما ابقوا للاحفاد .

وبقليل من التبصر نجد ان الحياة قبل بدء التاريخ مذهلة الغنى بالعبـر والمفاهيم .

مـــن ذلـــك :

١ ــ ان الانسان منذ وجد ، شعر بالشبه بينه وبين مثيله الانســان وبالفروق الضخمة التي تميزهما عن الحيوان .

فكانت هنالك معيشة متضامنة بين جماعات الناس ضد طوائف الحيوان وعناصر البيئة الطبيعية . هذه الحقيقة التي آمن بها الانسان الاول هي التفسير العقلي لمـا ورد في الكتب المقدسة وقبل الكتب المقدسة عـن قصة الخليقـة : الانسان اخ للانسان لانهما يفترقان عن الحيوان ، آدم وحواء رمز للمجتمع الانساني في تباينه الكلي عن الزمر الحية الاخرى .

٢ ــ مهما تعمقنا في اغوار ماقبل التاريخ نجد فروقا ظاهرة فـــي السلالات ، بيضاء وصفراء وسوداء ذات رؤوس عريضة او مستطيلة. غير انه منذ ذلك الزمن السحيق تفاعلت السلالات وانتشرت التصالبـــات بالتمازج والهجرات . فما يكاد يطل وجه التاريخ حتى تكون قصة العـرق الخالص اسطورة لا وجود لها في الواقع الا كحالات نموذجية .

وهكذا تكون ادوار ماقبل التاريخ قد حررت الانسان من تركيز العيش المشترك على الخصائص البيولوجية الواحدة .

٣ ــ وقد حررته ايضا بعض الشيء من عبودية المحيط . بـــدأت آلة عقله بالدوران فاستخدم الخشب وصقل الحجر واذاب المعادن ، وغالب الطبيعة وبدأ ينفلت من قيدها . ومآل ذلك انه اصبح من معانـي الوطن والقومية منذ ذلك الزمن الابعد ــ شعوريا اولا شعوريا : عصبية الجهود المشتركة لقهر الطبيعة . وهل يعني هذا شيئا اخر غير الحضارة او الثقافة بمعناها الاوسع ؟

فمما لا ارتياب فيه ان اول حرفة للانسان كانت سلبية ، تقتصر علـى التبديد والاتلاف : اتلاف رأس مال الطبيعة بقطف ثمرها وحرق شجرها وقتل حيوانها . لكنه انتقل بعد دأب صبور الى مرحلة ايجابية ، وهـي مرحلة الاستثمار ، باغناء الطبيعة عن طريق تربية الانعام وزرع الارض والعيش من ريع رأس المال لا من استهلاكه .

خطوة عملاقة كانت اذن الخطوة التي جازها انسان ماقبل التاريـــخ على درب الحضارة . وكان لنا في هذه الخطوة تعريف سليم للقومية : هي المشاركة في الخلق والابداع للنهوض بمستوى العيش . فاذا استمـرت هذه الجهود المشتركة تثمر اجيالا واجيالا يتحصل من ذلك تاريـــخ طويل ، تاريخ العرق المشترك والظفر المشترك . ولا شيء اثمن من ذلـك في توثيق العرى القومية .

٤ ــ تلك الحضارة الحابية عند اللاتاريخيين كان لها مقوم اخر : هـو الشعور الغيبي ومظاهره الخارجية .

نحن قد نجهل الاساسي عن عقيدة اجدادنا الاول ، لكننا نقـــدر استجابتهم لافاق ماوراء الطبيعة ، واستكانتهم للسحر واطمئنانهم الـــى الطلاسم والتعاويذ وتصورهم لنشأة الكون ونظامه .

اننا لانعدم حجة للحدس بان التدين على شكل ما عريق في الانسان . والا فلمن أهدى انسان المغاور تلك الصور الفنية الرائعة التي بقيـــت منقوشة على الجدران الى اليوم ؟

الفن في خدمة الدين . كان هذا شعار الانسانية الاول ، وظل شعارها حتى بداة العصور الحاضرة . ومقطع افقي للزمان قد يغني احيانـــا كثيرة عن مقطع طولاني له ، أعني ان قياس الاحوال الغابرة بما يماثلهـا من الاحوال المشاهدة من شأنه الوصول الى اجتلاء الماضي . والجماعات المتخلفة اليوم شأنها شأن المجتمعات الراقية ، تنتظمها مقدسات ومحرمات وتصورات غيبية توجه السلوك الجماعي وتفرض قانونها على الافراد .

وسواء عبد الناس الشجر ام النبع ، العاصفة ام البحر ، الشمس

ــ التتمة على الصفحة ٧٥ ــ

التاريخ بين القومية والانسانية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٦ ـ

او القمر ، ام تساموا الى موجدها ، فان المصدر واحد والغرض واحد .

شعور بالضعف امام القوى الكونية ، وعجز عن تفهم الذات المعقدة الا بارجاعها الى القوى البارئة القديرة ، وانصهار للافراد في خشوع جماعي يوحد المشاعر والمصائر ويستدر الخيرات ويدرأ المكاره . ولسنا نعرض هنا لامر الدين انسياقا مع فلسفة اللسان ، وانما لان الدين ، اي دين ، كان عنصرا هاما في العملية القومية والانسانية .

وقد لاحظ « برغسون » تلازم الديانة مع المجتمعات جميعها دون استثناء ، وتساءل : كيف يضطرد ذلك مع نمو العقل البشري ؟ وهو يجيب : ان الديانة هي ضرورة حيوية ، بل هي ملازمة للحياة نفسها ،انها جزء من « النزوع الحيوي » . ذلك ان الحيوان ينقاد اجتماعيا بغريزته وحدها ، اما الانسان فينقاد بعقله . وتخشى الحياة ان ينحرف العقل الى النوازع الفردية فيعطل المجتمع او يعوق مسيره ، ولذلك كانت الديانة رادعة للعقل ، رادة له الى الطريق الاجتماعي .

هذه « الديانة الساكنة » طبيعة مركبة في النفس تؤدي وظيفة اجتماعية وقد خلقت حين خلق العقل ولا بد ان تلازمه دائما .

ويقول « برغسون » ايضا : ان الانسان ، كل انسان ، قد يشك في كل شيء الا في الموت ، وحين يضع الموت المؤكد نصب عينه قد تفتر فيه دفقة الحياة وتخور عنده عزيمة البقاء . ووظيفة الديانة ان تسمو به الى آفاق خلابة حافزة ، افاق الحياة الثانية .

لاشك اذن ان الانسان حيوان متدين ، ولذا فان الوظيفة التقديسية عنده وظيفة أزلية . والتجربة الانسانية السابقة للتاريخ كانت حتما متدينة قبل كل شيء ، متدينة بأي شيء ..

ان القصص الطريفة المحبوكة التي بقيت لنا من بداية عهد التاريخ ، والتي تعلل الكون وما فيه فتزوج من تزوج من الكواكب مع الريح او الماء او الفضاء ، وتفرق من تفرق ، وفي كل مرة تنفلق البيضة عن اله ، اله حرب او اله حب .... ان كل هذه المجموعة من التصورات العلويةلايمكن ان تنشأ في يوم واحد ، يوم عرف البشر الكتابة ودونوا التاريخ . ولا بد انها وليدة تخمر طويل في روع البشر السابقين ليوم التاريخ .

وحتى الشك في الدين هو في النتيجة نوع من التدين ، لانه في غالب الامر محاولة لتعويض آلهة بآلهة اشد والوصول من ذلك الى الاله اقوى الاقوياء .

نستشف ذلك في عصور التاريخ من حيرة ابراهيم التي قصها علينا القرآن الكريم في سورة الانعام :

« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربي ، فلما افل قال لا أحب الافلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا اكبر ، فلما أفلت قال ياقوم اني بريء مما تشركون » .

اعود الى انسان ما قبل التاريخ لاقول مرة اخرى انه كان شاعرا بانسانيته ، ينتسب الى مجموعة من الاقران يستغلون بقعة واحدة من الارض ويؤمنون بقوى واحدة في السماء ويتعاونون فيما بينهم على مقارعة الطبيعة فى عتوها والكاسر من الحيوان في غائلته ، أتراني اسرفت في التمدح به ، انسان ماقبل التاريخ ، ونسبت اليه مالم يتوافر فيه ؟

الامر الذي لاشك فيه هو انه تميز عن الحيوان منذ البداية ، فتعامل الرجل مع جاره الرجل واشتركا معا في مهمة الحياة دون ان تفسد بينهما غيرة الجنس والرغبة في الانثى . والقطيع الحيواني على غريزته الاجتماعية لايستطيع ذلك ، ويكاد يتناثر تماسكه الجماعي في موسم الشوق الى الجنس الاخر ..

٥ ـ قد اخرت عن عمد العنصر المفروض بالبداهة ، وهو عنصر التفاهم بالاصوات ، اعني اللغة ، فاللغة منضافة الى الحركة العضلية ، تكمل طقوس العبادة سواء كانت صراخا مدويا ام ترانيم او تمتمات ، وباللغة يتم الجهد المشترك سواء كانت اصواتا بسيطة معبرة ام تراكيب طويلة معقدة . واذا كان الماضي يقاس بالحاضر ، فبشر ماقبل التاريخ ، كالبدائيين في مجاهل افريقيا اليوم ، كانوا يتكلمون لهجات لاتحصى كل لهجة تعين حدود قومية من القوميات ..

وانه لمن العسير ان نوازن بين ركائز الاجتماع في بذوره الاولى ، وان نعطي الوزن الاوفى لعنصر ما قبل اخر في نشأة الجماعة اللاتاريخية : هل هو التساند في تأمين الغذاء والكساء والمأوى ، ام التعارف بالاصوات، ام التآلف في ظل المقدسات ؟ الحق انها كلها عناصر ذات وزن ، ثم انها متداخلة متشابكة . والعنصر المادي ليس اخفها . وبهذا الوجه يجب ان نفهم ابن خلدون حين يقول :

« ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش ، فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله وابتداء بما هو ضروري منه » ...

لعلنا قد ورثنا ، دون ان ندري ، الكثير الكثير عن الذين لم يخلدهم التاريخ ، ورثنا عنهم هيكل البناء الذي ستسبغ عليه الازمان المقبلة الطلاء الخارجي ، وتوسع او تضيق من حجراته وتزودها ببعض الاثاث الجديد فلنقوم الان ماترك لنا المؤرخون .

الدولة والقومية في فجر التاريخ

ولست ازعم ان أقوام ما قبل التاريخ قد عبرت كلها باب التاريخ ، وحملت معها رصيدها الاجتماعي . فالواقع ان بعض السلالات التاريخية قد باد ، وبعض الجماعات انفرط عقدها ، واكثرها قد نزح عن مهده الاصيل وجرى على سطح الارض توزيع جديد للبشر بفعل الهجرات الجماعية التالية لتبدل المناخ .

الا ان الجماعات التاريخية لم تلد من العماء ، اقصد انها لم تتكون عن غير اجداد ، ومع أرثها العضوي اللاتاريخي اخذت المكتسبات والمقومات المتحصلة في الدهر السحيق .

كان هنالك اذن مرور اجتماعي الى التاريخ .

واذا رجعنا الى القليل الذي جاد به علينا علماء التاريخ عن احوال الدول الاولى ، وجدنا في قصة القومية والانسانية بعض الجديد في التفرعات والتفاصيل ، وفي بلورة عدد من المظاهر ، كانت سديمية من قبل .

من ذلك :

١ ـ ان الدول المنظمة اصبح لها ارض معينة ذات حدود بينة لها صفة القدسية ، وبتعبير اخر ، ان الجماعات المتنقلة لم تكن تمنح ارض الوطن المعنى العميق الذي اصبح له في نفوس الجماعات الثابتة . فالوطن ـ بمعناه الترابي ، ومن حيث هو مستقر للقومية ـ اضحى في المكانة بمنزلة العبادة ، وبمرتبة لغة التخاطب وتراث الحضارة .

وقد ذهبت بعض الدول في حماية حدودها الى حد اقامة الاسوار

المنيعة في الجهات التي تخشى منها زحف القوميات الاخرى عليها ، كسور الصين الكبير والسور الشرقي لدلتا النيل .

٢ ـ ازدادت فاعلية اللغة في الترابط القومي باكتشاف الكتابة ، وبالتالي تسجيل المشاعر والتقاليد الجماعية بالحروف اضافة الى الاصوات والنقوش والتماثيل .

٣ ـ انصهرت الديانة في الدولة ، وأصبح لكل مجتمع مستقل دين قومي مستقل الى جانب اللغة القومية . حتى ليصح القول بان تاريخ الشعوب القديمة كلها ليس الا تاريخ ديانات تلك الشعوب .

وجاءت الكتابة عونا على دمج عامل اللغة بعامل العبادة ، فظهرت الكتب القومية المقدسة كالفيدا عند الهنود والافستا في ايران ، والتوراة عند العبرانيين .

ولا بد ان نتريث بعض التريث عند ظاهرة انصهار الدين في الدولة ، لان هذه الظاهرة ستخطط تاريخ القوميات الزمن الاطول .

قلنا ان الانسان حيوان متدين منذ البدء ، وهو حيوان سياسي منذ البدء ايضا ، ومنذ اعرق الازمان عراقة نجد التضافر بين الدين والحكم .

خطان برزا منذ الخفقة الاولى في حياة البشر :

خط الانتقال في التماسك الاجتماعي من الاسرة الى القبيلة والرهط فدولة المدينة ثم دولة الامة .

خط الانتقال من العبادة القبلية والطموطمية الى عبادة الارباب المحلية ثم الى عبادة الرب او الارباب القوميين ..

خطان متوازيان في كل منهما نزعة الى التعميم والتوحيد .

ولكنهما التقيا بعد قليل وشكلا خطا واحدا .

قد لايمكن ان نقتنع بنظرية التعاقد الاجتماعي التي ركبها « روسو » وغيره من الفلاسفة ، وجعلوا فيها نشأة الحكومات الاولى من صنع الاتفاق الطوعي بين الناس . على ان ظلا من حقيقة يتبقى لهذا الفرض .

في عصور الانسانية المبتدئة قدس البشر القوى العجيبة الخارقة في الكون . وكل انسان تميز بالقدرة العضلية والقوة البدنية والشجاعة في قهر الحيوان المفترس والمهارة في اصطياد القوت ، هابه الاخرون وأطاعوه وأحاطوه بمظاهر التجلة ومراسم التبجيل .

في القديم وأم الادميون بين السحرة والحكام ، بين القوة الغيبية والقوة الانسانية وجمعوا بينهما ، فصنعوا للحكام الاقوياء نسبا آلهيا ، او على الاقل توهموا فيهم تجسيد الارباب على الارض .

وعندما تسمو المدارك البشرية وينزه الناس الهتهم عن التجسيد ، يبتكر الحكام شكلا اخر من اشكال التاليه ليربطوا دوما بين الدين والدولة ، فيطلعون على رعاياهم بنظرية الحق الالهي ، التي تجعل من الملوك طائفة اختارها الله لتنفيذ أوامره واقامة شعائره .

منذ بزغ التاريخ ، اتحد التاج والقلنسوة ، في اذهان الناس وفي نفوسهم ، وارتبط الصولجان بالطيلسان .

وسنرى بعد قليل كيف ينفصم هذا الزواج في بعض البلدان خلال العصور الحديثة .

٤ ـ كان من نتائج الثنائية المدنية والروحية في قوام الحكم ، انه تجمع حول الحاكم نفران من الناس : المحاربون الاقوياء الذين يشدون حكمه بالسيف ، وسدنة الدين الذين يأزرونه بالصلاة . النبلاء من جهة والكهنوت من جهة . ومهمة سائر افراد الامة العمل لاعالة المحاربين والمصلين . نوع من تقسيم العمل في المجتمعات الاولى . وفي كل ذلك كان هنالك تطابق تام بين الدولة والامة او الشعب . وحين تعمل الديموقراطية الحديثة على فصل الدين عن الدولة تعمل في نفس الوقت على الغاء ماكان تابعا لذلك اي نظام الطبقات .

النزعة العالمية والامبراطوريات الاولى

ولامر ما لم يستغرق عهد الدول الاولى زمنا طويلا من عمر التاريخ . ومنذ الالف الثالث قبل الميلاد ـ بل وقبل ذلك ـ عم الدنيا نظام الامبراطوريات .

ولقد ذكرت عن اقوام ما قبل التاريخ انهم مروا من مرحلة التبديد الى مرحلة الاستثمار في انتفاعهم بالطبيعة ، اما اقوام التاريخ فقد دخلوا في مرحلة ثالثة ، وهي استثمار شعب لشعب ، اي الاستعمار .

ولا بد ان نتساءل لماذا تسيطر دولة على اخرى ؟

هل السبب مادعاه الفلاسفة : النزوع الى العالمية اي استمرار نزعة التعميم والتوحيد ؟ او حرص الاقوياء على افادة الضعفاء بنعم المدنية ؟

ام لسبب هو المجد وحب المغامرة عند الحكام ؟

ام اخيرا الرغبة الملحة في السيطرة على موارد جديدة ؟

لنترك الاجابة للتاريخ .

الفيلسوف الانساني أرسطو ينصح الاسكندر بتوحيد العالم ونشر آلاء الحضارة الهيللينية فيه ، وقد يكون المعلم الاول مدفوعا بعامل النزوع الى العالمية الانسانية ، اما الاسكندر فانه يتخذ من ذلك ذريعة لارضاء حاجات التوسع عند الاغريق المحصورين في رقعة جبلية ضيقة . والحثيون في هضابهم القاحلة كانوا ينظرون الى الغلات الزراعية الموفورة عندما عزموا على الهبوط نحو بلاد الهلال الخصيب .

والفراعنة لم يكن الهدف من بعوثهم العسكرية الى الشام غير الخشب والماعز والغنم ودنان الزيت والخمر ، والفضة والحديد والجلود وما شابه ذلك .

وقد تبدو لدى الفاتحين رغبة في نشر لغة او تعميم دين او بسط الرخاء والامن .

الاسكندر بذر المستوطنين المقدونيين في المدن الكثيرة التي انشاها لكنه لم يكن يرمي من وراء ذلك الا امتصاص قومية السكان المحكومين. وقد فشل في ذلك .

والفرعون امنحوتب الرابع بدل دياثة اجداده ، ونبذ الاله القومي آمون وأحل محله الها اضفى عليه صفة العالمية وهو آتون ، وانتسب اليه فدعا نفسه اخناتون وكان يقصد عن طريق الدين الى توطيد حكمه في الامبراطورية المصرية الواسعة .

والرومان جعلوا شعارهم في الفتح والتوسع : السلم العالمي . السلم العالمي بقيادتهم ولمنفعتهم وحدهم ..

يصف المؤرخ الروماني « ارستيد » ذلك السلم الروماني لمواطنيه فيقول لهم :

« من كافة جهات الارض تحمل اليكم منتوجات كل موسم . واذا رغبتم في مشاهدة هذه المنتوجات ينبغي ان تطوفوا حول العالم او تقيموا في روما . انكم واجدون في روما ، كل اونة وبمقادير وفيرة ، جميع ماتجود به الطبيعة او تخلقه الصناعة لدى شعوب العالم اجمع . ففي كل فصل من السنة ترسو السفن على ارصفة التيبر حاملة لروما من السلع مايجعلها سوق الدنيا ، ان ثمار الهند وبلاد العرب السعيدة لغزيرة عندكم حتى يظن انها قطفت كلها لكم . واذا شاء الهنود والعرب اقتناء منتوجات ارضهم وجب عليهم ان يجلبوها من لدنكم .. »

ان النزوع الى العالمية قد اخذ في ظل الامبراطوريات القديمة شكل

التسلط بالقوة ، لارضاء مطامع اقتصادية محضة ، وهو عين الشكل الذي يتخذه الاستعمار الحديث .

ولعلنا نصدق فلاسفة النزوع الى العالمية الانسانية حين نقرأ صفحة اخرى من صفحات التاريخ القديم ، تلك الصفحة التي سماها « كارل ياسبرز » : العهد المحوري للتاريخ :

حول القرن الخامس قبل الميلاد تفتحت في بقع عديدة من العالم باقة من الفلاسفة والمصلحين ، ارادوا تعميم انسانية الانسان وتحرير البشرية من الشرور والاثام . وضم هذا العهد المحوري امثال كونفوشيوس ولاوتسه في الصين وبوذا في الهند ، وزرادشت في فارس وهوميروس وافلاطون وغيرهما في بلاد اليونان ..

التجربة المسيحية

والتجربة المسيحية في عهودها الاولى مثال رائع على النزوع الانساني الى العالمية .

انتشرت المسيحية دون تسلط ، بل قامت ضد التسلط ، وقدمت الشهداء على مذبح الايمان الخالص . وطالما لم تحاول امتصاص القوميات تقبلتها تلك القوميات بصدر مفتوح . وبتعبير اصح تخلت الشعوب عن دياناتها السابقة بدافع النزوع الى التوحيد ، ولكنها لم تتخل بأية حال عن لغاتها . ثم ماذا حدث ؟

حدث ان الملوك تبنوا المسيحية ، كما تبنوا الديانات الاخرى من قبل ، وقرنوها بحكمهم ، وجعلوا منها آلة للتسلط الداخلي والخارجي .

مثال واحد استمده من « جان دوشه » في كتابه الطريف « تاريخ فرنسا كما قصته جولييت » ، يقول : « آلى الملك شارلمان ان يدخل السكسونيين في نعمة المسيحية ، فخصهم باربعة وثلاثين حملة عسكرية . واني لاتساءل فيما اذا كان قد اراد اخضاعهم من اجل تعميدهم ام تعميدهم من اجل اخضاعهم ...

والذي حدث انه اردف بجيشه مااستطاع حشده من القساوسة والرهبان ليجعلوا نيره اقل مرارة ... »

وحدث ايضا انه حين جرب الاباطرة والملوك قهر القوميات باسم الدين المسيحي ، ثارت القوميات باسم الدين ايضا ، وحاربت المتسلطين بسلاحهم . على هذا الوجه يفهم التاريخ الهرطقات والبدع التي انتشرت في كل مكان من الامبراطورية البيزنطية ، لهذا الغرض القومي كافح آريوش ونسطور ويعقوب البردعي وعشرات غيرهم لا لاختلافهم مع القياصرة على قضايا ناسوت ولاهوت ...

والبروتستانتية في المانيا وسويسرا وبريطانيا وغيرها من بلدان اوروبا هل كانت في حقيقتها شيئا اخر غير التعبير عن قومية الشعوب ورفض انصهارها في الروح اللاتينية ؟

ثم ان الكنيسة المسيحية ، بالاضافة الى تعضيدها الملوك على الشعوب اصبحت تنعم بثروات ضخمة ، وتملك الارضين الواسعة ويعيش سدنتها معيشة الامراء المترفين .

لكل ذلك تكون رأي عام لايدافع ، يطالب بفصل الدين عن الدولة ويعني هذا انزال العبادة الى المرتبة الفردية في التكوين القومي وتجريد الحكومات من قوة الدين . والثورات الديمقراطية هي التي حققت هذا التبديل . وفي حصر الدين في نفوس الافراد صيانة له من عبث الحكومات .

التجربة الاسلامية

والاسلام ايضا يمثل النزوع العالمي الانساني باجمل معانيه . وذلك لانه دعوة خالصة الى التوحيد فهل انتشر الاسلام بالقوة وعلى جثث القوميات ؟

قيل ذلك .

ولكن عملية حسابية بسيطة تبطل هذا الزعم .

عدد المسلمين في العالم اليوم نحو ٤٠٠ مليون ، كم منهم اعتنق اجدادهم الاسلام بحكم الفتح والاستيلاء ؟

هل حكم العرب المسلمون اندونيسيا وسيلان والملايو والهند الصينية وبرمانيا وسيام وافريقيا السوداء ؟

هل دخلوا فاتحين الى الصين ؟ هل كان لفتوحاتهم مدى يذكر في الهند والباكستان ؟

اذا احصينا سكان هذه البلاد نجد انهم لايقلون عن ثلثي مسلمي العالم .

ومن الحقيقة التاريخية ان الاسلام قد لقي النجاح الكامل من حيث هو دعوة روحية ، ولكنه لم ينشر القومية العربية في ايران وافغانستان وتركيا والقوقاز وازربيجان وبلاد التركمان والاوزبك والقرغيز والكثير من البلاد الاخرى ذات القوميات الراسخة .

فلماذا نجح الاسلام دينيا وقوميا في حدود الوطن العربي القائم اليوم ؟

لنذكر اولا انه لم يحارب شعوب هذه المنطقة وانما حارب حكامهم، البيزنطيين الغرباء .

ولنذكر ثانيا ان اقوام المنطقة قد تلقوا المسلمين كمنقذين لا كفاتحين .

ولنذكر اخيرا ان الاتصال الثقافي والاجتماعي كان موجودا بالفعل بين العرب واولئك الشعوب قبل الاسلام .

لهذه الاسباب نجحت هنا الدعوة العربية في كنف الدعوة الاسلامية .

وقد تجنب الاسلام في بنيته الاصيلة ان يفسح المجال لاستغلال الدين من قبل كهانه ، فلم يخلق طبقة كهان ..

وحل بالاسلام ماحل بالمسيحية . حاول الاتراك باسمه ان يقتلوا القوميات ، فقتلتهم القوميات في النهاية . واصطنعوا طائفة من المسلمين على شكل اكليروس ، فكان ان نفر الناس من حكمهم لهذا السبب ايضا ، فطالبوا بفصل الدين عن الدولة ليتهيأ لهم محاربة الدولة مع الحفاظ على قدسية الدين .

الديمقراطية والاستعمار والاممية الجديدة

ليس لي ان اختتم هذا المقال ، دون ان ارسل بعض السهام المسمومة الى هذا الضرب من الديمقراطية الحديثة التي تقصم ظهور الشعوب بوقر استعمارها . لم هذا التلازم بين الديمقراطية والتسلط ؟

مع نشأة النظام البرلماني في انجلترا بدأ استعمار الهند . والملك الديمقراطي الفرنسي لويس فيليب ارسل حملته المشؤومة على الجزائر العربية ، ومن قبله نادت الثورة الفرنسية بالحرية والاخاء والمساواة ، وعاثت في اوروبا ، وانتهبت ممالك واذلت قوميات ، ومن بعد ذلك اممنت الجمهورية الثالثة والرابعة والخامسة في سفك دماء الشعوب واغتصاب قوتها ...

هل كل ذلك ايضا تطبيق لمبدأ الوحدة والشمول ؟..

نعم . شمول الجشع ووحدة النهب والتدمير .

الديمقراطية في بلادها اطلقت العنان للطاقات الشعبية المكبوتة ثم عجزت عن ضبطها ، فشقت لها اقنية نحو الاستعمار .. خشيت الديمقراطية على نفسها من الديمقراطية فالهتها عن نفسها بغيرها ..

وشكل اخر للديمقراطية يحمل لواء الاممية .

بدلا من قومية اللغة والحضارة والدين ، يريد ان يخلق رابطة الصراع بين الطبقات في جميع القوميات . من رابطة الصراع وحدها يحاول ان يقيم مجتمعا عالميا متزنا متحابا مترابطا فماذا صنع ؟

لم يستطع اقتحام حصون القوميات فدار حولها .

تبنت بعض الحكومات ـ ولا اقول الامم بل ولا الدول ـ العقيدة الشيوعية ، ولكنها اضطرت ان تضعها تحت ابط قوميتها . البولونيون لايزالون يعتزون ببولونيتهم وبالتالي لايزالون يحرصون على الاستقلال ، وكذلك الهنغاريون والرومانيون واليوغسلاف والصينيون .

وفي الاتحاد السوفياتي قومية روسية راسخة مهيمنة ، تفرض سلطانها على مائة وثمانين قومية اخرى ، تماما كما كان الامر في عهد القياصرة ... ولا عبرة بوجود المجالس والجمهوريات اذا كان الوحي القيادي ينتزل على الروسيين وحدهم وباللغة الروسية وحدها ..

الدولة والامة والتراث الاجتماعي

في اخر مؤلف لاستاذنا الكبير ساطع الحصري « ماهي القومية » روز لعوامل القومية حسب درجتها في التأثير : لغة ، مشيئة تعايش ، مصالح اقتصادية ، وحدة دينية الخ .. .وكل ذلك معالج بيد خبيرة واعية .

والذي أراه ان واقع التاريخ يحملنا على شيء من الاحتراس ، فليس لاي اثر قيمة مطلقة في جميع الظروف والبيئات ، وحسبنا القول بان العناصر المذكورة تدخل كلها في التراث الاجتماعي بنسب تزيد او تنقص. والقومية هي التراث الاجتماعي .

قد لاتكون الولايات المتحدة الاميركية أمة بالمعنى المتعارف عليه . لانها دولة تضم عناصر بشرية من قوميات مختلفة المهاد ، وقد يكون التحدث عن امة بلجيكية او أمة سويسرية ضربا من خداع التاريخ . هنا تعايش ارادي طويل الامد ينتهي بمنح الدولة بعض ماللقومية من مقومات .

ولكن الولايات المتحدة وسويسرا او بلجيكا لاتصلح مثالا على امكان تحول القوميات الى أممية بلا قوميات . حدث هنا تعاقد اجتماعي بالفعل من أجل بناء الدولة . غير ان لكل دولة منها ظروفا استثنائية خاصة . ففي امريكا وحد بين الانجليز المتأمركين الفرار بالدين الى ارض لايضطهد دينهم فيها ، ولما وفدت عليهم جموع المهاجرين المنوعين الطامعين بالذهب طبعهم الانجليز الامريكيون بطابعهم الغالب ، بذلك سيطرت على المجتمع الحديث لغة واحدة وحضارة واحدة ومشيئة واحدة للعيش المشترك ، وهي عوامل كافية لقيام دولة واحدة ، وفي المستقبل لنشوء امة واحدة .

وفي سويسرا ألمان وفرنسيون وايطاليون ، وكان ادنى الى مفهوم القوميات ان ينضاف الالمان الى دولة المانيا والفرنسيون الى دولة فرنسا والايطاليون الى ايطاليا . والواقع انه لم يحدث هنا انصهار قومي ، ولم يتغلب عنصر على اخر ، وبقيت كل قومية شبه مستقلة سياسيا في ظل الاتحاد الفدرالي . والواقع الذي حمل المتجاورين السويسريين على التوحد السياسي المخفف هو اشتراكهم في بيئة جبلية صعبة تقتضي التضافر على ترويضها وتسخيرها لمنفعة المتشاركين .

وفي بلجيكا ايضا لم تنصهر قومية « الوالون » بقومية « الفلامان » ، وانما حدث بين الفريقين تواطؤ سياسي على العيش معا ، لتداخل العنصرين في اكثر من موضع على ارض بلجيكا ، بسبب الظروف التاريخية القديمة . وقد اعان على استبقاء هذا الوضع الشاذ رغبة انجلترا التاريخية في خلق دولة على بحر الشمال تقف بينها وبين المسدس الصوب الى قلبها من فرنسا ..

اعود مرة اخيرة الى التراث الاجتماعي لاتمثل ببعض مظاهرة في دنيا العرب :

الشاميون الذين هاجروا الى امريكا ، بقيت افئدتهم عربية مابقيت السنتهم عربية ، وبالتالي طالما صانوا التراث الاجتماعي العربي الذي حملوه معهم . ولكن الاجيال الجديدة المولودة في المهجر تصبح امريكية حتما ـ وقد اصبح الكثير منها ـ حين تفقد ذلك المعين .

واللغة العربية صانت الامة العربية اربعة قرون في ظل الحكم التركي مع انه حكم اسلامي .

وفي الجزائر يلم الدين الاسلامي عزائم المجاهدين ، لانه المقوم الابرز في صلب تراثهم الاجتماعي .

بهذا التراث يصمد اخواننا الابرار في الصرود والوهاد والسهول قبالة العتو الاجنبي .

فلتكن خاتمة المقال تحية عربية ملؤها الحب والاكبار لهؤلاء القديسين نسور القمم في تاريخ القومية العربية .

ولتكن اخر كلمة لنا : قومية كل امة تعني قبل كل شيء وحدتها السياسية . وليس قوميا عربيا بل ليس عربيا ابدا من يقبل بالقومية المفككة الى وحدات سياسية منعزلة . (*)

دمشق

عزة النص

(*) محاضرة القيت في المركز الثقافي بحمص